مجلة الجزيرة للعلوم التربوية والإنسانية
الرقم الدولي: ISSN Linking: 1858-5698
http://journals.uofg.edu.sd/index.php/gjeas/

السماع عند البصريين والكوفيين : دراسة وصفية تحليلية مقارنة

د. عبد الرازق احمد محمد علي

• أستاذ المساعد ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجزيرة، السودان.
bdalrajdw59@gmail.com

الملخص

هدفت الدراسة لبيان السماع عند أولى المدارس النحوية مدرستي البصرة والكوفة. وما قام به علماؤهما من جهد في تقعيد القواعد وضبط اللسان العربي بعد اختلاطه بالأعاجم، والمقارنة بين المدرستين، تنبعُ أهمية الدراسة من الاهتمام باللغة العربية لأنها لغة القرآن الكريم الذي يتعبد به كل مسلم مما يستوجب تجويده ، وذلك بالاعتماد على ضوابط وقواعد النحو، و معالجة الضعف الذي لحق باللغة العربية نتيجة امتزاج العرب و أهالي البلاد المفتوحة أبان الخلافة الإسلامية الراشدة بالتركيز حول السماع ودوره في تقعيد القاعدة النحوية، اتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي المقارن مبينة ما ورد من حجج وأدلة بدراسة الحالة ووصفها وتحليلها والمقارنة بين المدرستين. توصلت الدراسة إلى أن علماء المدرسة البصرية لا يعتمدون سماع أهل المدن لاختلاطهم بالأعاجم وظهور المدنية على لسانهم، كان علماء المدرسة الكوفية يحتجون بسماع أهل وسكان البوادي والمدن اختلافاً مع المدرسة البصرية. للخليل بن احمد الفراهيدي القدْح المعلّى في إرساء قواعد السماع ووضع قوانين وقواعد النحو من مشافهة البدو الخُلّص الذين لم تفسد سلائقهم ولا ألسنتهم ، فيعدُّ هو صاحب فكرة السماع، كما له دور في نشر السماع كمصدر من مصادر تقعيد القواعد وذلك لما قام به من جهد ورحيله للبوادي. أوصت الدراسة بالاهتمام بعلم النحو كعلم ترتكز عليه علوم اللغة العربية الأخرى، تعليم الناشئة بالمراحل المدرسية الأولى كيفية النطق السليم والرسم الصحيح للكلمات العربية و ضبطها، استناداً على القواعد النحوية وذلك حتى لا يكثر اللحن والوقوع في الخطأ سيما عند تلاوة الذكر الحكيم.

المعلومات:
تاريخ إرسال الورقة:
2024/10/22
تاريخ قبول الورقة:
2025/2/26
تاريخ نشر الورقة:

الكلمات المفتاحية: السماع، البصريين، الكوفيين، اللغة العربية، المدارس النحوية

As-Sama' (Attested Linguistic Usage) according to Linguists of Basra and Kufa: A Comparative, Descriptive and Analytical Study

Abstract

The study aimed to examine the concept of "al-sama'(attested linguistic usage) introduced by the earliest grammatical schools—the schools of Basra and Kufa—and the efforts exerted by their scholars to establish grammatical rules and stanardize Arabic speech after its interaction with non-Arabs, as well as to draw a comparison between the two schools. The significance of this study stems from the importance of dedication to the Arabic language, as it is the language of the holy Quran, which every Muslim uses for worship, thereby requiring its mastery. This mastery relies on the rules and principles of grammar to address the weaknesses that affected the language after Arabs intermingled with the inhabitants of the conquered lands during the era of the Rightly-guided Caliphs. The study specifically focuses on 'al-sama’ and its role in formulating grammatical rules. The study adopted the descriptive, analytical, and comparative method, illustrating the arguments and evidence by examining, describing, and analyzing the case study, and by comparing both schools. The study has concluded that scholars of the Basra school do not accept the 'sama' of city dwellers as a valid source, due to their mixing with non-Arabs and the impact of urbanization on their speech. In contrast to the Basra school, scholars of the Kufa school accept the 'sama' of both desert Bedouins and city dwellers alike as authoritative evidence. Al-Khalil ibn Ahmad Al-Farahidi played a leading role in establishing the foundations of 'al-sama’. He laid down the laws and rules of grammar by directly consulting the pure Bedouins, whose innate linguistic intuition and tongues remained unspoiled. Thus, he is considered the pioneer of the 'sama’ ' concept. He also played a pivotal role in promoting 'al-sama’ as a primary source for codifying grammatical rules, as a result of the immense effort he exerted during his journeys into the desert wilderness. The study recommends focusing on grammar as a foundational science upon which other Arabic language sciences rely. It also emphasizes teaching youngsters in the early school stages the proper pronunciation, correct spelling, and accurate diacritical marking ('dabt') of Arabic words based on grammatical rules, in order to prevent the prevalence of grammatical errors, particularly when reciting the holy Qur'an.

Key words: al-sama', linguists of Basra, linguists of Kufa, Arabic language, grammatical schools.

مقدمـة:

الحمد لله رب العالمين ، فاتحة كل خير ، وتمام كل نعمة ، والصلاة والسلام على أشرف النبيين وخاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ .

فإنّ اللغة العربية هي معجزة الله، اختص بها العرب دون سائر شعوب الأرض لتكون وعاءً لكتابه الكريم الذي أنزله على رسوله الأمين، ونظراً لما للغة العربية من مكانة سامية، دون سائر اللغات، فإنّ البحث فيها والتصنيف في فروعها، وإعمال الفكر في حكمتها وإبراز أسرارها. كما أن هناك من صنّف نشأة علم النحو، ومن صنف أصوله وعلله ومدارسه وقعّد القواعد مستنداً على مصادر رئيسة مهمة ومحددة، وفي هذه الورقة العلمية يبسط الباحث القول في الكتابة عن مصدر من المصادر التي اعتمدها النحاة في تقعيد القواعد النحوية وهو السماع عند علماء المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية والمقارنة بين المدرستين في هذا المجال .

أسباب اختيار موضوع البحث :

- الحاجة الماسة بتذكير الدارسين للغة العربية ،لا سيما علم النحو ذلك لمعرفة ما قام به علماء النحو في تقعيد قواعد النحو وما بذلوا من جهد في ذلك .
- ارتباط الدراسة بدراسة القرآن الكريم وتدبر معانيه.
- الوقوف عند المصادر الرئيسة والتي كان يعتمدها علماء النحو في وضعهم لقواعده، وجعلها سنداً قوياً لما ذكروا ودونوا وحجة لهم يحتجون بها .
- حاجة أهل اللغة العربية لهذه القواعد، والضوابط في وقتنا الحاضر، لانتشار اللحن والخطأ والاختلاط بالأعاجم وبعد الشقة بيننا وبين السابقين من علماء في هذا المجال.

منهج البحث:

وصفي تحليلي مقارن مبيناً ما ورد من حجج وأدلة بدراسة الحالة ووصفها وتحليلها والمقارنة بين المدرستين .

حدود البحث:

حسب ما يقتضيه عنوان البحث فهو ينحصر في المصادر الرئيسة لعلم النحو تحديداً "**السماع**" عند علماء المدرسة البصرية والكوفية، فهو محدود الإطار الذي يحمله عنوانه ولا يعدوه إلا بقصد المقارنة.

أهمية البحث:

- معالجة الضعف الذي لحق باللغة العربية نتيجة امتزاج العرب وأهالي البلاد المفتوحة أبان الخلافة الإسلامية الراشدة بالتركيز حول السماع ودوره في تقعيد القاعدة النحوية.
- الاهتمام باللغة العربية لأنّها لغة القرآن الكريم الذي يتعبد به كل مسلم مما يستوجب تجويده، وذلك بالاعتماد على ضوابط وقواعد النحو.
- الوصول إلى رأي صحيح يجمع بين المدرستين فيما **عرضا** من آراء دونما تعصب أو ميل لجهة، فيكون بذلك خلاصة لها فائدتها .

هيكل البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يشتمل على مقدمة وموضوعات قسمها الباحث على النحو أدناه :

نشأة النحو وأهم مصادره وأو ائل النحاة:

- نشأة علم النحو وأهم مصادره
- أوائل النحاة

التعريف بالمدرسة البصرية وأشهر علمائها ودورهم في تقعيد القواعد ، واستنادهم على السماع

- التعريف بالمدرسة البصرية
- أشهر علماء المدرسة البصرية ودورهم في نشر علم النحو
- اعتماد علماء المدرسة البصرية السماع كمصدر رئيسي في وضع قواعد وضوابط علم النحو .

التعريف بالمدرسة الكوفية وأشهر علمائها وما قاموا به في نشر علم النحو والسماع عندهم

- التعريف بالمدرسة الكوفية
- أشهر علماء المدرسة الكوفية ودورهم في نشر علم النحو
- اعتماد علماء المدرسة الكوفية السماع كمصدر رئيسي في وضع قواعد وضوابط علم النحو .
- الخاتمة
- فهرس المراجع
- فهرس الموضوعات .

نشأة علم النحو ومصادره وأسباب وضعه وأو ائل علمائه

نشأة علم النحو وأهم مصادره :

ظهرت اللغة العربية في شبه جزيرة العرب ، وكان أهل الجزيرة يتحدثون بها فطرة وسليقة ، وعندما ظهر الإسلام ، نزل القرآن الكريم على سيدنا محمد (صلي الله عليه وسلم) وكان أكثر بلاغة وفصاحة ، فأعجزهم الله بهذا القرآن ، رغم تفوقهم في الفصاحة والبلاغة ، إذ أنهم كانوا على درجة عالية من الإجادة بها . وعندما انتشر الإسلام في بلاد كثيرة ، ظهر اللحن في تلاوة الذكر الحكيم مما دفع بأهل العلم والفقهاء وضع ضوابط وقواعد تضبط لسان المسلم عربياً كان أم أعجمياً من الوقوع في الخطأ . وكانت هناك أسباب لوضع علم النحو وبواعث مختلفة منها الديني وغيره.

فالبواعث الدينية تعود إلي حرص العلماء الشديد على أداء نصوص الذكر الحكيم أداءً فصيحاً صحيحاً ، لاسيما في ظل انتشار اللحن على الألسنة . فقد روى بعض الرواة أن الرسول (ﷺ) سمع رجلاً يلحن في كلامه فقال :

(أرشدوا أخاكم فأنه قد ضلّ) (1) ورووا أن أحد ولاة سيدنا عمر بن الخطاب كتب إليه كتاباً به بعض الأخطاء واللحن ، فكتب إليه سيدنا عمر: (إن قَنّعْ كاتبك سوطاً)(2). ومن البواعث أن العرب يعتزون بلغتهم اعتزازاً شديداً مما جعلهم يخشون عليها من الفساد حين امتزاجهم بالأعاجم ، فقاموا برسم أوضاعها خوفاً عليها من الفناء، كذلك بواعث اجتماعية ترجع إلي أن الشعوب المستعربة أحست الحاجة الشديدة لمن يرسم لها أوضاع العربية في إعرابها وتصريفها حتى تتمثلها تمثلاً مستقيماً ، وتتقن النطق بأساليبها نطقاً سليماً . هذه البواعث وغيرها دفعت دفعاً إلي التفكير في وضع علم النحو .

اختلف الناسُ في أول من رسم النحو ، فقال قائلون :- أبو الأسود الدؤلي وقيل :- نصر بن عاصم (3) . وقيل :- عبد الرحمن بن هرمز ، ولكن أكثر الناسُ على أنه أبو الأسود الدؤلي (4)

البصرة أول من وضع علم النحو: -

لقد وضع أبو الأسود الدؤلي نقط الإعراب ومن ثم بدأ الناس يأخذونه عن تلاميذه، فوضعوا مصطلحات مثل:- الاسم والفعل والحرف والمبتدأ والفاعل والمفعول. وكان القرآن الكريم وقراءاته مدداً لا ينضب بقواعدهم. وكانوا يردون بعض القراءات ويضعفونها كأن ذلك كان ظاهرة عامة عند نحاة المدرسة البصرية.

وكانوا لا يحتجون بالحديث النبوي، ولا يتخذونه إماماًلشواهدهم وأمثلتهم لأنه رُوي بالمعنى إذ لم يكتب ولم يدّون إلا في المائة الثانية للهجرة. ودخلت في روايته كثرة الأعاجم. وتبعهم نحاة المدرسة الكوفية. وفي ذلك يقول أبو حيان:- "إن الواضعين الأولين لعلم النحو المستقرئين للأحكام من لسان العرب. كأبي عمرو ابن العلا، وعيسى بن عمر والخليل بن أحمد وسيبويه من أئمة البصريين، والكسائي والفراء وعلي بن المبارك وهشام الضرير من أئمة الكوفيين لم يحتجوا بالحديث، وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من المدرستين(5).

وعلى هذه الشاكلة شيدت البصرة صَرح علم النحو ورفعت أركانه بينما كانت الكوفة مشغولة عن ذلك كله. حتى منتصف القرن الثاني للهجرة بقراءات الذكر الحكيم ورواية الشعر والأخبار، وقلما نظرت في قواعد النحو إلاّ ما سقط إلى بعض أساتذتها من نحاة البصرة إذ كانوا يتتلمذون لهم ويختلفون إلى مجالس محاضراتهم وإملاءاتهم، وكان القدماء يعرفون ذلك معرفة دقيقة، فنصّوا عليه بعبارات مختلفة، ومن ذلك قول ابن سلام:- "وكان لأهل البصرة في العربية سهم وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية"(6).

([1]) كنز العمال ج (1) ص 151
([2]) الخصائص – ابن جني – ج(2) - ص 8
([3]) معجم الأدباء – ج (19)- ص 224
([4]) السيرافي – ص 13
([5])الاقتراح للسيوطي ص17 – والهمع جـ"1" ص105.
([6]) ابن سلام – طبقات فحول الشعراء - ص12.

ويصرّح أبن النديم في هذا المجال تصريحاً أكثر وضوحاً إذ يقول في حديثه عن نحاة الكوفة والبصرة: "إنما قدمنا البصريين أولاً: لأن علم العربية عنه أخذ"(7).

وبذلك فهم السر في أن عقل البصرة كان أدق وأعمق من عقل الكوفة، وكان أكثر استعداداً لوضع العلوم، إذ سبقتها إلى الاتصال بالثقافات الأجنبية والفكر اليوناني وما وضعه أرسطوطاليس من المنطق وحدوده وأقيسته. فقد اهتمت الكوفة بالفقه بينما اهتمت البصرة بعلم الكلام، فعقل كل من البلدين كان مختلفاً:- عقل مصبوغ بالصبغة الفلسفية المنطقية، وعقل لا يرتفع إلى هذه المنزلة إلا في حدود ضيقة لذلك كان طبيعياً أن لا يصاغ الفقه الحنفي الكوفي صياغةٍ علميةً دقيقةً، بينما يُصاغ النحو في أدق صورة علمية ممكنة، وهي صياغة لم تستطع العصور التالية أن تضيف إليها إلا بعض تعريفات وبعض تسميات، أما الأصول وأما القواعد والضوابط والأسس فإنها ظلت قائمة كالطود.

أوائل نحاة البصرة:-

يُعدُ ابن أبي إسحق الحضرمي أول النحاة البصريين بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ويتبعه في هذه الأولية المبكرة جيل من تلاميذه في مقدمتهم عيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، وفي كتب طبقات النحاة طائفة ممن عنوا بالعربية من معاصري تلاميذه، لعل أشهرهم حماد بن دينار البصري(8).

وكانت رواية الحديث تغلب عليه، غير أنه كان عالماً بالنحو، ويُروى أن يونس بن حبيب تتلمذ عليه وكذلك سيبويه، ولم ترو له كتب النحو أنظاراً نحوية، ولذلك ينبغي أن نخرجه من دائرة النحاة الحقيقيين، ومثله معاصره الأخفش الأكبر(9) شيخ يونس وسيبويه جميعاً. وكانت تغلب عليه رواية اللغة وليست له في النحو آراء موروثة. وقد أكثر سيبويه في الرواية اللغوية عنه في كتابه.

أما الأربعة الأولون فترددت أسماؤهم عند النحاة، وتتردد لهم آراء تجعلهم خليقين الوقوف قليلاً عندهم مثل ابن أبي إسحق الذي يُعد أستاذ المدرسة البصرية.

أبن أبي إسحق(10):-

هو عبد الله بن أبي إسحق مولى آل الحضرمي المتوفي سنة 117 هجرية. يقول بن سلام:- "كان أول من بُعج "فتق" النحو ومدّ القياس وشرح العلل" وبذلك يجعله الواضع الأول لعلم النحو، إذ يجعله أول من اشتق قواعده

([7]) الفهرست ص102.

([8]) ترجمة حماد في الزبيدي ص47، ونزهة الألباء ص40، معجم الأدباء جـ(10) ص254، وأنباه الرواة جـ(1) ص229، وبغية الوعاة ص240.

([9])ترجمته في الزبيدي ص35، ونزهة الالباء ص43، وأنباء الرواة جـ(2) ص157.

([10]) طبقات فحول الشعر لابن سلام ص14، ونزهة الأنباء ص18 وأنباه الرواة جـ(2) ص104.

وأول من طرد فيها القياس بحيث يحمل ما لم يُسمع عن العرب على ما سُمع عنهم. ويقول أبو الطيب اللغوي:- "فرّع عبد الله بن أبي إسحق النحو وقام وتكلم في الهمز، حتى عُمل فيه كتاب مما أملاه".

عيسى بن عمر الثقفي(11) :-

بصري من موالي آل خالد بن الوليد نزل في ثقيف فنُسب إليها وهو أهم تلاميذ بن أبي إسحق، وقد مضى على هديه يطرد القياس ويعممه ومن أقيسته ما حكاه سيبويه عنه من أنه كان يقيس النصب في كلمة "يا مطرا" في قول الأحوص:-

سلامُ الله يا مطراً عليها * وليس عليك يا مطرُ السلامُ**

على النصب في كلمة "يا رجلاً" وكأنه يجعل مطراً في تنوينها ونصبها كالنكرة غير المقصودة(12). وكان مثل بن أبي إسحق يطعن على العرب الفصحاء إذا خالفوا القياس، وكان يصعد في هذا الطعن حتى العصر الجاهلي ومن ذلك تخطئته النابغة في قوله:-

فبتُ كأني ساورتني ضئيلة * من الرُّقش في أنيابها السمُّ ناقعُ(13)**

إذ جعل القافية مرفوعة، وحقها أن تنصب على الحال ، لأن المبتدأ قبلها تقدمه الخبر وهو الجار والمجرور، وكان النابغة ألغاهما لتقدمهما وجعل ناقعاً الخبر(14).

أبو عمرو بن العلاء(15):-

اسمه زبان بن العلاء المأذني التميمي، ولد سنة 70 هجرية بمكة ونشأ وعاش بالبصرة حتى توفي بها سنة 154 هجرية. وقد تتلمذ على بن أبي إسحق على نحو ما تتلمذ عيسى بن عمر، اهتم بإقراء الناس القرآن في المسجد الجامع بالبصرة وهو أحد القراء السبعة المشهورين، كما اهتم بلغات العرب وغريبها وأشعارها وأيامها ووقائعها، وفي ذلك يقول الجاحظ عنه: "كان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس".

وقال بن جني عنه:- "كان ممن نظروا في النحو والتصريف وتدربوا وقاسوا"(16). ولكن لم يكن هذا هو الجانب الذي شغله، ولعل ذلك هو السبب في أن سيبويه لم يرو عنه بعض الشواهد اللغوية ولا عن تلاميذه شيئاً مهماً له في النحو ومسائله، إنما روي عنه بعض الشواهد اللغوية، ولم يأخذها عنه مباشرة، إنما أخذها عن تلميذه يونس بن حبيب. وفي أخباره ما يدل على أنه كان يأخذ بالاطراد في القواعد ويتشدد في القياس فقد قال بعض معاصريه:-

---

([11]) الفهرست أبا الطيب اللغوي ص21، والزبيدي ص35 والسيرافي ص31 ص61.
([12]) الكتاب، سيبويه جـ(1) ص313.
([13]) - ساورتني:- واثبتني – ضئيلة:- دقيقة ويريد أفعواناً – الرقش:- الأفاعي التي تختلف في جلدها نقط سوداء وبيضاء – ناقع: قاتل.
([14])- الكتاب، سيبويه جـ(1) ص261.
([15]) - ترجمة أبي عمرو، أبا الطيب اللغوي ص13 – الزبيدي ص28 – السيرافي ص28 – الفهرست ص48.
([16])- ترجمة أبي عمرو، أبا الطيب اللغوي ص13، معجم الأدباء جـ(11) ص156، تهذيب التهذيب جـ(12) ص178، مرآة الجنان ج(1) ص235.

"أخبرني عما وضعت مما سميته عربية أيدخل فيها كلام العرب كله؟ فقال:- لا، فقال له كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة؟ قال:- أعمل على الأكثر وأسمّي ما خالفني لغات".

ورُويت له في كتب النحاة بعض آراء نحوية قليلة منها أنه كان يرى أن المنصوب في قولهم:- "حبذا محمد رجلاً" تمييز لا حال مستنداً على الشعر الجاهلي والإسلامي (17)

يونس بن حبيب(18) الضبي:-

من موالي بني ضبة، وقد لحق ابن أبي إسحق وروى عنه، ولد سنة 94 هجرية، عاش طويلاً، توفي سنة 182هجرية. اختلف إلى حلقات عيسى بن عمر وقد لزم أبا عمرو بن العلاء، رحل إلى البادية وسمع عن العرب كثيراً، مما جعله راوياً كبيراً من رواة اللغة والغريب، ولعل ذلك جعله يصنف كتاباً في اللغات، وكانت حلقته في البصرة تغصُّ بالطلاب وفي مقدمتهم سيبويه واسمه يتردد في كتابه غالباً في شواهد اللغة، لا في الآراء النحوية، لأنّ سيبويه لم يكن يعجب بتلك الآراء، وكان الخليل قد استولى عليه، وغدا يونس في نحوه وما وضعه من أقيسة أمة وحده. وتنبه إلى ذلك القدماء فقالوا:- "كانت ليونس مذاهب وأقيسة تفرّد بها".

ومن الآراء التي تخالف آراء سيبويه وأستاذه الخليل والتي بثها يونس، فقد كان الخليل يرى أن الزائد في مثل:- "قطّع" هو الحرف الأول. وكان يونس يرى أنه الحرف الثاني(19).

وكان الخليل يرى أن مفعول ننزع محذوف في الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ (20). والتقدير لننزعن الفريق الذي يقال فيهم أيهم أشد. وقال يونس:- جملة (أيهم أشد) هي المفعول(21).

وكان الخليل وسيبويه يريان أن تصغير قبائل:- قبيئل، وكان يونس يرى تصغيرها:- قبيل(22). وكان سيبويه لا يرد المحذوف فيقول:- في تصغير بضع: يويضع(23). وكان يذهب إلى أن تاء أخت، وبنت ليست للتأنيث لأن ما قبلها ساكن صحيح ولأنها لا تبدل في الوقف هاء(24).

(التعريف بأشهر علماء المدرسة البصرية، ودورهم في تقعيد القواعد واعتمادهم السماع)

التعريف بالمدرسة البصرية:-

([17])- مغني اللبيب لابن هشام ص515- همع الهوامع جـ(1) ص115.
([18]) الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري ص207.
([19])ا لخصائص جـ(2) ص61.
([20]) سورة مريم الآية (69)
([21]) مغني اللبيب – ص82.
([22]) المنصف شرح تصريف المازني لابن جني جـ(2) ص85.
([23]) الخصائص جـ(3) ص71.
([24]) شرح التصريح على التوضيح بهامشه حاشيه يس العليمي جـ(1) ص74.

ترتبط نشأة علم النحو وتطوره ارتباطاً وثيقاً بمدينة البصرة لما قدمه علماء وفقهاء هذه البلدة من علم وفائدة، في تلك الفترة وظل ما وضعه علماء ذاك الزمان باقٍ بقاء الزمن لما له من أهمية، فقد بذلوا مجهودات كبيرة ليضعوا نقط الإعراب لتمييز بعضها عن بعض، وأطلقوا على علامات النقط الخاصة بالإعراب أسماء تفرق بينها، واشتقوها من الكلمات "فتحت شفتي وضممتها وكسرتها، وسموه على التوالي نقط الفتحة ونقط الضمة ونقط الكسرة، فالملاحظ هنا الاختلاف في إعراب الأسماء حسب مواضعها من الكلام – وقاموا بتقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف.

وقد بدأ هذا الفعل أبو الأسود الدؤلي وهو من علماء وفقهاء مدينة البصرة، وقد مضى الناسُ يأخذون عن تلاميذه فكان ذلك باعثاً لهم ولمعاصريهم على التساؤل عن أسباب هذا الإعراب وتفسير ظواهره مما هيأ لبعض أنظار نحوية بسيطة، ومعروف أنه لكي يُصاغ علمٌ صياغةٌ دقيقةٌ لا بد له من اطراد قواعده وأن تقوم على الاستقراء الدقيق، وأن يكفل لها التعليل وأن تصبح كل قاعدة أصلاً مضبوطاً تقاس عليه الجزئيات قياساً دقيقاً. وكل ذلك نهض به البصريون أمثال بن أبي إسحق وتلاميذه، وهم في بذلهم وجهدهم هذا، يطرحون الشاذ ولا يعولون عليه في قليل أو كثير. كما اشترطوا صحة المادة التي يشتقون منها قواعدهم، من أجل ذلك رحل هؤلاء العلماء إلى أعماق نَجْدٍ وبوادي الحجاز وتهامة يسمعون أقوال وأشعار العرب فيجمعون تلك المادة من ينابيعها الصافية التي لم تفسدها الحضارات واللغات الأخرى، وبعبارة أخرى رحلوا إلى القبائل المحتفظة بملكة اللغة وسليقتها الصحيحة(25) معتمدين فقط على السماع لتقعيد قواعدهم، وأضافوا على هذا الينبوع الأساس ينبوعاً بدوياً زحف إلى بلدتهم من بوادي نجد وهو نفر من الأعراب الكاتبين قدم إلى البصرة واحترف تعليم شبابها الفصحى السليمة وأشعارها وأخبار أهلها وفي الفهرست لابن النديم ثبت طويل بأسماء هؤلاء المعلمين(26) من الأعراب الذين وثقهم علماء البصرة وأخذوا عنهم كثيراً من المادة اللغوية والنحوية سجلوها في مصنفاتهم، وكان القرآن الكريم وقراءاته مدداً لقواعدهم.

مما سبق يتضح أن مدينة البصرة أنشأت مدرسة علمية لتعليم شباب وتلاميذ البصرة علم النحو كأول مدرسة تهتم بشأن هذا العلم بعد انتشار اللحن والوقوع في الخطأ نطقاً ورسماً، وحفاظاً منها – أي مدرسة البصرة – على اللسان العربي واللغة العربية اجتهد علماؤها في وضع قواعد وضوابط، تضبط اللسان العربي فكان لهم السبق بينما كانت الكوفة وقتها تهتم بالفقه، وقد انشأت مدرسة نحوية مؤخراً منافسة للمدرسة البصرية فيما وصفته من قواعد تخصها مما كان له آثاره الخلافية في نشر علم النحو وعلمه ومعرفته، وخلق منافسة علمية بين المدرستين وتقوية الحجة.

أشهر علماء المدرسة البصرية:-

([25]) المزهر للسيوطي جـ(1) ص211.

([26]) الفهرست ص71.

في الصفحات السابقة ذكرت بعض العلماء من مدينة البصرة الذين أسسوا لهذا العلم وعملوا على تقعيد قواعده، وهناك من تلاميذ هؤلاء العلماء ما قدم الكثير من معارف ومعلومات ذات أهمية وفائدة قيمة سندهم في ذلك المصادر الرئيسة التي يعتد ويحتج بها – القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والقياس والسماع ومن أولئك العلماء وامتداداً لما سبق نذكر أثنين منهم على سبيل المثال لا الحصر وهما:

أولاً: الخليل بن أحمد:-

هو الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري(27)، عربي من أزدعُمان، ولد سنة 100 هجرية وتوفي سنة 175 هجرية، نشأ وترعرع في البصرة، وأخذ يختلف منذ نعومة أظفاره إلى حلقات المحدثين والفقهاء وعلماء اللغة والنحو، فجلس إلى أستاذه عيسى بن عمرو وأستاذه أبي عمرو بن العلاء يأخذ منهما العلم والمعرفة، وكان صديقاً لابن المقّفع فقرأ كل ما ترجمه، وكان عقل الخليل من العقول الخصبة النادرة، فهو لا يلم بعلم حتى يلتهمه التهاماً، بل حتى يستوعبه ويتمثله وينفذ منه إلى ما يفتح به أبوابه الموصدة، ويعدُ الخليل أحد رواد المدرسة البصرية النحوية، وكانت له آراء عديدة بذل لها مجهوداً كبيراً برحيله إلى بوادي الحجاز وغيرها بغرض السماع من أفواه العرب الخُلص الذين لم يختلط لسانهم بالأعاجم، وقد اعتمد السماع من هؤلاء مصدراً رئيساً لتقعيد القواعد. فمضى يسمع ويدون ما سمعه جاعلاً السماع ضابطاً له ونبراساً. والسماع عنده إنما يعني نبعين كبيرين، نبع النقل

عن القراء للذكر الحكيم، ونبعُ الأخذ عن أفواه العرب الخُلّص الذين يوثق بفصاحتهم ومن ذلك رحل إلى مواطنهم في الجزيرة فيأخذ عنهم الشعر واللغة، ويروي الكسائي وقد بهره كثرة ما يحفظ من أين أخذت علمك هذا؟ فأجابه:- من بوادي الحجاز ونجد وتهامة وهذان النبعان وحدهما اللذان يدوران على لسانه فيما نقله عنه تلميذه سيبويه، ويظهر أنه هو الذي ثبت فكرة عدم الاستشهاد بالحديث النبوي لأن كثيرين من حملته كانوا من الأعاجم وهم لا يوثق بهم في الفصاحة.

ليست المسألة عنده مسألة سماع وشواهد فحسب، فقد جعله استقراؤه للغة العرب تستقر في نفسه سليقتهم استقراراً مكنّه من ضبط القواعد النحوية والصرفية ضبطاً يبهر كل من يقرأ مراجعات سيبويه له. ويكفي أن نضرب لذلك مثلين، أما الأول فملاحظته أن "إن" الشرطية إذا وليها مضارع مجزوم لم يحسن دخول لام اليمين في الجواب، فلا يُقال:- "إن تأتني لأكرمنَّك" لأن اللام تعوق إنْ عن العمل وقد ظهر عملها في فعل الشرط. أما إذا كان فعل الشرط التالي لها ماضياً فإن عملها لا يكون حينئذ ظاهراً فيه، ولذلك يجوز دخول لام اليمين على جوابها، فيقال:- "إن أتيتني لأكرمنك". ويعلق الخليل على ذلك بشواهد بخلاف قوله جلّ وعزّ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن

(27) ترجمة الخليل أبا الطيب اللغوي ص27، الزبيدي ص43، السيرافي ص38، نزهة الألباء ص45.

لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (28). بخلاف قوله جلّ وعزّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (29). لأن "إن" عملت في فعل الشرط فوجب عملها في الجواب.

والمثل الثاني منع العلم من الصرف إذا كان على وزن فعلان مثلثه الفاء والنون فيه زائدة مثل: عثمان وغطفان، يقول سيبويه:- "سألته عن رجل يسمى دهقان فقال إن سميته من التدهقن فهو مصروف، وإن جعلته من الدّهْق لم تصرفه"، والملاحظ أن الخليل في وضعه لقواعد النحو والصرف اعتمد على سماعه للعرب الخُلّص الذين لم يختلطوا بالأعاجم اعتماداً كبيراً. حتى يجعل من علمه وما يدونه من معارف ومعلومات تصب فيما يصبو إليه من صون للسان العربي وضبطه بضوابط وقواعد تجعله يتدبر ويتلو آيات الذكر الحكيم بكل دقة وصحة. وكان السماع له دوراً كبيراً في تقعيد قواعده، ونظمها حتى ظهرت لتلاميذه وغيرهم بصورة صحيحة دقيقة. هذا هو رأيي وقد نجح في ذلك حيث أن تلاميذه ومن جاء بعده سلك هذا المسلك تأكيداً لأن السماع مصدر شافٍ كافٍ.

ثانياً: سيبويه:

اشتهر بلقبه سيبويه، وهو لقب أعجمي يدلّ على أصله الفارسي، أسمه عمرو ابن عثمان بن قنبر(30)، من موالي بني الحارث بن كعب، ولد بقرية من قرى شيراز تسمى البيضاء، قدم البصرة وهو لا يزال غلاماً، والتحق بحلقات الفقهاء والمحدّثين، ولزم حلقات النحويين واللغويين وفي مقدمتهم عيسى بن عمر والأخفش الكبير يونس بن حبيب، وأختص بالخليل بن أحمد، وأخذ كل ما عنده في الدراسات النحوية والصرفية.

السماع عند سيبويه:-

يجري سيبويه في السماع على الأساس الذي وضعته مدرسته وهو النقل عن القراء وعلماء اللغة الموثقين والعرب الذين يوثق في فصاحتهم، وأستنّ بمدرسته في قلة الاستشهاد بالحديث النبوي لأنه رُوي بالمعنى لا باللفظ. ويقول ابن الجزريّ(31):- أنه أخذ القراءة عن أبي عمرو بن العلاء، ويظهر إن صحّ ذلك أنه لم يأخذها عنه مباشرة، إنما أخذها عن بعض تلاميذه، إذ نراه في "الكتاب" لا يذكر له مسألة إلا من طريق الرواية عن بعض هؤلاء التلاميذ وخاصة يونس بن حبيب، ونظن ظناً أنه حمل قراءة الذكر الحكيم عن هرون بن موسى النحوي(32) الذي يتردد ذكره في "الكتاب" مع بعض القراءات التي يرويها، وكذلك عن أستاذه الخليل وغيره من أئمة القراءات العشر.

وكان سيبويه يقول:- "القراءة لا تخالف لأنها السنة"، ولذلك قلما يذكر القراءة التي تخالف القياس. بل عادة لا يعرض لها، ومما وقف عنده الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن

([28]) سورة الأعراف الآية (23)

([29]) سورة هود الآية 47

([30])ترجمة سيبويه في كل من مراتب النحويين ص65، السيرافي ص48، الزبيدي ص66، الفهرست ص82، نزهة الألباء ص60، معجم الأدباء جـ(16) ص114.

([31]) المرجع السابق ص 66

([32]) ترجمته في نزهة الألباء ص32، معجم الأدباء جـ(19) ص263، وبقية الوعاة ص406.

فَيَكُونُ﴾ (33) وكان بن عامر يقرأ يكون بالنصب، وهو بذلك يخالف القياس، لأن المضارع لا ينصب بعد الفاء مع الأمر، على نحو ما يقدر ذلك سيبويه، إلاّ إذا كان جواباً له، ولم يرد الله في رأيه أنه يقول للشيء كن فيكون وإنما أراد أنه يقول للشيء كن فحسب، ثم أخبر أنه يكون، ومعنى ذلك أن قوله "فيكون" كلاماً مستقلاً لا مترتباً على أمر، ومن هنا نرى سيبويه يذكر في الآية قراءة الجمهور بالرفع، ولا يعرض لقراءة بن عامر(34).

ويتردد في الكتاب سماعه عن علماء اللغة الموثقين في موطنه وفي مقدمتهم أستاذه الخليل، ويليه يونس بن حبيب، وقد نقل عنه أكثر من مائتي مرة، ثم الأخفش الكبير ثم أبو عمرو بن العلاء ثم عيسى بن عمر ثم ابن أبي إسحق.

وكان سيبويه قد دخل بوادي نجد والحجاز وقيّد كثيراً عن العرب شعراً ونثراً، وكان موقفه من العرب دائماً أن يسجل الصورة الشائعة على ألسنتهم في التعبير معتمداً عليها في تقرير قواعده ولم يسجلها وحدها، بل كان يسجل دائماً ما جاء شذوذاً على ألسنتهم، ويصفه تارة بالضعف وتارة بالشذوذ أو القبح أو الغلط. ومن ذلك قوله:- "وأعلم أن ناساً من العرب يغلطون فيقولون:- إنهم أجمعون ذاهبون وإنك وزيد ذاهبان"(35). وهو بذلك يقرر أن توكيد اسم "إن" والمعطوف عليه ينبغي أن يكونا جميعاً منصوبين لأنهما يتبعان منصوباً، ومعروف أن الفاء لا ينصب المضارع بعدها إلا إذا كانت جواباً لأمر أو تخصيص نهي أو تمني أو استفهام أو نفي أو دعاء أو عرض فإن نصب معها في كلام ولم يكون جواباً لأحد هذه الثمانية كان ذلك شذوذاً وضعفاً إن جاء عن العرب في بعض أشعارهم.

مما ذكرت آنفاً يتضح لنا أن سيبويه مضى في تدوينه مشافهاً العرب في مناطقهم وبواديهم معتمداً السماع مصدراً رئيساً في تقعيد قواعده مستشهداً بأشعارهم وأمثالهم وقصصهم ورواياتهم تأكيداً لصحة ما سمعه ودوّنه حتى يخرجه صحيحاً سليماً لا تشوبه شائبة من اختلاط باللسان العربي بالأعاجم.

(التعريف بالمدرسة الكوفية، وأشهر علمائها ودورهم في نشر علم النحو والسماع عندهم)

التعريف بالمدرسة الكوفية :

بدأت الكوفة في وضع قواعدها النحوية مؤخراً بعد البصرة، حيث إنها كانت تهتم بالفقه وعلومه، وعادة تذكر كتب التراجم أولية للنحو الكوفي مجسّدة في أبي جعفر الرواسي ومعاذ الهراء، أما الرواسي فيقول مترجموه(36). إنه أخذ النحو عن عيسى بن عمر، وأبي عمرو بن العلاء، وعاد إلى الكوفة فتلمذ عليه الكسائي، وألف لتلاميذه كتاباً في النحو سماه الفيصل. وفيه يقول أبو حاتم:- "كان بالكوفة نحوي يقال له أبو جعفر الرواسي، وهو مطروح العلم

(33) سورة البقرة الآية 117

(34) الكتاب جـ(1) ص423.

(35) الكتاب جـ(1) ص290.

(36) ترجمة الزبيدي ص135، والفهرست ص102، ونزهة الألباء ص54، ومراتب النحويين ص24.

ليس بشيء"(37) وكان يعاصره معاذ الهراء وهي بدايات للنحو بالكوفة، ولكن البداية الحقيقية للنحو الكوفي بالكسائي وتلميذه الفراء، فهما اللذان رسما صورة لهذا النحو ووضعا أسسه وأصوله، فكانت له خواصه التي يستقل بها عن النحو البصري، متخذين له الأسباب التي ترفع بنيانه.

أجمع القدماء على أن نحو الكوفيين يشكل مذهباً مستقلاً، أو مدرسة مستقلة سواء منهم أصحاب كتب الطبقات والتراجم مثل:- بن النديم في كتابه الفهرست والزبيدي في كتابه طبقات النحويين، أو أصحاب كتب المباحث النحوية، إذ نراهم دائماً يعرضون في المسائل المختلفة وجهتي النظر المتقابلتين في المدرستين الكوفية والبصرية. وقد أفرد عبد الرحمن بن محمد الأنباري مجلداً عرض فيه الخلاف بين المدرستين في إحدى وعشرين ومائة مسألة نحوية.

وقد نشأت المدرسة الكوفية بعد المدرسة البصرية، مما جعل بينهما منافسة قوية نتج عنها قواعد وضوابط لعلم النحو وكل له حجته وشاهده ومصادره فيما ذهب إليه من معلومات ومعارف تتعلق بهذا العلم. "علم النحو". ومعنى ذلك أن الصلة بين المدرستين في النحو ظلت قائمة على مدار الزمن، وأن الطبيعي أن تجد دائماً عند نحاة مدرسة الكوفة تأثرات مختلفة عن المذهب البصري. ولكنهم مع ذلك استطاعوا أن يثبتوا شخصياتهم إزاءه، وأن ينفذوا إلى مذهب مستقل بهم. له طوابعه وخصائصه التي تفرّده عن المذهب البصري إفراداً متميزاً واضحاً. بجهد **الكسائي والفراء تحديداً.**

أشهر علماء المدرسة الكوفية ودورهم في نشر علم النحو:-

الكسائي وتلاميذه والسماع عنده:-

هو علي بن حمزة(38) من أصل فارسي، ولد بالكوفة في سنة تسع عشرة ومائة للهجرة، ونشأ بها، واكب منذ نشأته على حلقات القراء مثل سليمان بن أرقم راوي قراءة حسن البصري(39)، وأبي بكر شعبة بن عيّاش راوي(40)، وسفيان بن عُيينة راوي(41) قراءة عبد الله بن كثير إمام قراء مكة، ولزم حلقة حمزة بن حبيب الزيات حتى حذق قراءته. ويُقال لُقب بلقبه الكسائي في مجالسه، لأنه كان يلبس كساء أسود ثميناً، ويُقال بل لُقب بذلك ، لأنه أحرم في كساء، وكان فطناً ذكياً، فرأى أنه لن يبرع في قراءة الذكر الحكيم إلاّ إذا عرف إعرابه، فاختلف إلى حلقات أبي جعفر الرّواسي وإلى كتابه الفيصل ولم يجد عنده ما يريد فرحل إلى البادية رحلته الأولى ثم عاد إلى

([37]) مراتب النحويين ص24.
([38]) الفهرست ص103، نزهة الألباء ص67، تاريخ بغداد جـ(11) ص403، معجم الأدباء جـ(13) ص168.
([39])إبن الجزري جـ(1) ص312.
([40])إبن الجزري جـ(1) ص325.
([41]) إبن الجزري جـ(1) ص308.

الكوفة(42). وكأنه رأى أنه لن يحسن العربية إلاّ إذا استمع إلى معلميها بالبصرة فرحل إليهم في رحلته الثانية باحثاً عن ما يفيد ويروي ظمأه من معلومات ومعارف في مجال النحو .

السماع عند الكسائي:-

حتى يجوّد الكسائي اللغة العربية ويجوّد علم النحو الذي يعتمد عليه في تجويد الفقه الذي يميل إليه ويدرسه كان عليه القيام برحلات إلى البادية لمشافهة العرب الخُلّص الذين لم يختلط لسانهم بأهل المدن والأعاجم، فرحل رحلته الأولى إلي البادية ثم عاد بعدها إلي الكوفة فوجد نفسه لم يُحسن العربية كما ينبغي، ثم رحل إلي البصرة ليستمع إلي أساتذتها، فأخذ ينتقل بين حلقات عيسى ين عمر وأبي عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، ثم عكف إلي حلقة الخليل بن أحمد وراعته روايته لأشعار العرب وأقوالهم فسأله عن ينابيع هذه الرواية فقال له إنها من ملابسة أهل البوادي في نجد والحجاز وتهامة ، فكانت رحلته الثالثة إلى تلك البوادي ومعه خمس عشرة قنينة حبر وظل يكتب ما يسمعه من أفواه العرب الخُلّص ويدّونه في صحفه، حتى أنفذ ما يحمله من حبر، ثم عاد إلي مسقط رأسه الكوفة، وقد بسط له لسانه وذُلّل له منطقه واستقامت فصاحته وعربيته، وأخذ يستغل ذلك استغلالاً حسناً في قراءة الذكر الحكيم بقراءة أستاذه حمزة ، وكان يتلو القرآن الكريم على الناس من أوله إلى آخره وذاعت شهرته ، وظل يقرأ في بغداد بقراءة حمزة ، ثم اختار لنفسه قراءة صارت إحدى القراءات السبع المتواترة، فأتخذه الرشيد إماماً في صلواته ورفيقه في غزواته ومقامه بالرّقة .

ويظهر أنه لم يكفه حينئذ ما أخذه من اللغة وشواردها عن البدو الخُلّص في الجزيرة العربية فقد مضى في رحلة رابعة يكثر فيها سماعه عن أعراب الحُطمة ، وهم عشيرة من بني عبد القيس نزلت بغداد وأقامت بها ، والذين يرونهم البصريون أنهم ليسوا من البدو والعرب الخُلّص وقد دخل الفساد على ألسنتهم ، وسرعان ما ظهر ذلك في مناظرته لسيبويه (43).

والملاحظ أن السماع والسعي له ومشافهة العرب الخُلّص وأهل البدو كان له الأثر الكبير والواضح في اتقان الكسائي للغة العربية وتجويده لعلم النحو والاستشهاد والاحتجاج بما سمعه من العرب وأصل البدو ، في تقعيد قواعده وضوابطه النحوية وقد تبعه في ذلك تلاميذه تقوية لحجتهم وسنداً لما دونوه من قواعد وضوابط في علم النحو .

أشهر تلاميذه :-

الفراء ، الأحمر ، هشام بن معاوية الضرير ، ومحمد بن سعدان والذين سبقوا الكسائي في سؤالهم لسيبويه في مناظرته الشهيرة فسأله الأحمر عن مسائل وكلما أجابه قال له أخطأت يا بصري ، إلي أن وافى الكسائي ومعه طائفة

(42) مجالس العلماء – الزجاجي ص266.
(43) الزبيدي ص 68

من عرب الحُطمة فاختلف سيبويه والكسائي حول من هم العرب الذين يأخذون منهم العربية لأن العرب الفصحاء الذين أخذ عنهم سيبويه وأستاذه الخليل لا ينطقون مثل "قائماً" في هذا المثال : خرجت فإذا زيدٌ قائمٌ . ونحوه إلا مرفوعة . وفي القرآن الكريم :"فإذا هي بيضاء" و "فإذا هي حيةٌ" أي إن ما بعد إذا في هذه الأمثلة مبتدأ وخبر مرفوعان ، وأظهر الكسائي تعجبه من رفضه لنصب كلمة "قائم" وقال : فلنرجع إلي ما يحضرنا من العرب ، وكانوا عرب الحُطمة الذين لا يعتمدهم علماء البصرة في عربيتهم وأنهم أقرب للمدن وليسوا بالخُلّص لاختلاط لسانهم بالأعاجم فكانت إجابتهم غير التي سمعها سيبويه من عرب البادية ، وليست كما جاءت في القرآن الكريم

وهنا يتضح دور السماع كمصدر رئيسي في تقعيد القواعد ، لأن القرآن نزل بلغة العرب ويتحدثون بها فطرة وسليقة لا يحتاجون لقواعد وضوابط نحوية ، فلا ينصبون مرفوعاً ولا يرفعون منصوباً، فالقرآن الكريم المصدر الرئيسي لتقعيد القواعد ، والسماع ومشافهة العرب تأكيداً لذلك "

الفراء :-

هو يحي بن زياد بن عبد الله (44) ، من أصل فارسي من الدّيْلم ، وُلد بالكوفة سنة 144هجرية ، نشأ بها ، وأخذ يكبُّ منذ نشأته على حلقات المحدِّثين والقُرّاء أمثال أبي بكر بن عيّاش ، وسفيان بن عُيينة ، وأختلف إلى حلقات الفقهاء ورواة الأشعار والأخبار والأيام ، وأكثر من الاختلاف إلى حلقة أبي جعفر الرواسي وكأنه لم يجد عنده ما يريد من علم اللغة العربية مما جعله يرحل إلي البصرة كأولى رحلاته العلمية ، ويتتلمذ على يد يونس بن حبيب ويحمل كثيراً عنه مما كان يرويه من لغات الأعراب وأشعارهم ، ويُقال أنه اختلف إلي حلقات المعتزلة التي كانت مهوى قلوب الشباب والمثقفين والأدباء في البصرة . وأنه تلقن حينئذ مبادئ الاعتزال ، وظل مؤمناً بها ، مما جعل مترجموه يقولون إنه كان متكلماً يميل إلى الاعتزال وآثار اعتزاله واضحة في كتابه (معاني القرآن) ، إذ نراه فيه يتوقف مراراً للرد على الجبرية ، ولعل صلته بالاعتزال والمعتزلة هي التي دفعته إلى قراءة كتب الفلسفة والطب والنجوم (45).

ومعني ذلك كله أن الفراء اهتم منذ نشأته في الكوفة والبصرة بالوقوف على ثقافات عصره الدينية والعربية والكلامية والفلسفية والعلمية ، ويشهدُ بذلك معاصروه ، فأتقن العربية ، واهتم بالقرآن الكريم وقراءاته وتفسيره ، وعاد إلى مسقط رأسه بعد أن حمل من ذلك أزواداً كثيرة ، وكانت شهرة مواطنه الكسائي قد أخذت تدّوي في بلدته فرحل ثانية إلى بغداد ، كل ذلك بغرض السماع للعلماء والفقهاء بتلك المدائن فلزمه منذ عصر المهدي (46) ، وأخذ كل ما عنده ويظل في هذه الحياة العلمية الخصبة حتى سنة 202 للهجرة ، وسرعان ما عقد للناس مجالساً أملى فيها كتابه الرائع (معاني القرآن) . وامتدت هذه المجالس من رمضان في السنة المذكورة حتى شهور من سنة

(44) الزبيدى ص 143 ، الفهرست ص 104 ، نزهة الالباء ص 98 ، طبقات القراء ج (2) ص 371
(45) المدارس النحوية ص 192
(46) مجالس العلماء للزجاجي ص 269

204للهجرة ، وهو فيه لا يفسر الذكر الحكيم بالطريقة المعروفة ، وإنما يتخير الآيات على ترتيب السور ما يُدير حوله مباحثه اللغوية والنحوية، وبذلك يحلُّ مشكلها ويوضح غامضها، مدلياً دائماً بآرائه النحوية، ومعبراً بما أختاره للنحو ، ناشراً مصطلحات جديدة، ناشراً من حين لآخر آراء أستاذه الكسائي وآراء النحويين البصريين .

السماع عند الفراء :

كان الفراء يتوسع في علمه ومعارفه مثل أستاذه الكسائي في الرواية عن الأعراب المتحضرين ، وإن كنا نلاحظ أنه كان يتتبع فصحاءهم، ممن سميناهم في غير هذا الموضع (47) أمثال أبي ثروان وأبي الجراح .

وتدل كثرة ما رواه عن العرب وقبائلهم أنه كانت له رحلة واسعة إلى الجزيرة إذ يكثر في كتابه (معاني القرآن الكريم) أن يقول : "وسمعت العرب تقول" أو يقول : "أنشدني بعض بني أسد أو بعض بني كلاب أو بعض ربيعة أو بعض بني عامر أو بعض حنيفة" إلى غير ذلك من قبائل عربية كثيرة .

وأكثر أيضاً من الرواية عن المفضل الضبي ، أما الكسائي فله الحظ الأوفر من الأشعار التي استشهد بها في معاني القرآن ، وقلما يذكر اسم الشاعر الجاهلي أو الإسلامي الذي ينشد من شعره(48) .

وقد مضى الفراء مثل النحاة البصريين وأستاذه الكسائي لا يستشهد بالحديث النبوي في كتابه (معاني القرآن) إلا ما جاء عرضاً وعفواً(49). بحيث لا يصح التعميم عنده وأنه كان يستشهد به .

أما القراءات فهي محور الكتاب، وقد أدار عليها توجيهاته لها من أساليب العرب، متحدثاً عن لغاتهم التي تجري مع القياس والتي تشذ عنه في رأيه، وليس معنى ذلك أنه لم يكن يتوسع في السماع من العرب، بل لقد يتوسع فيه إلى أقصى حدَّ أمكنه ، ملتمساً منه القياس، وخاصة إذا اتفق ذلك مع بعض آيات الذكر الحكيم وبعض قراءاته (50).

ويُعد السماع عند الكوفيين من المصادر الرئيسة لعلم النحو، وكذلك القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والقياس والسماع ، والتي جعلوها نبراساً لهم في تقعيدهم لقواعدهم ، وقد ورد سابقاً ما بذله أشهر علماء المدرستين في بسطهم للسماع وجهدهم الكبير في رحلاتهم إلي بوادي العرب بحثاً عن اللغة الرصينة التي لم تشابها شائبة ، وأهالي تلك البوادي الذين لم يختلط لسانهم بالأعاجم أو بسكان المدن .

وورد أنفاً أن الكسائي والفراء أشهر علماء المدرسة الكوفية قاما برحلات علمية لبوادي نجد وتهامة والحجاز وغيرها من مناطق بدوية يسكنها العرب الخُلّص بحثاً عن اللغة والأشعار والقصص والروايات العربية الرصينة، فشافهوا العرب ودونوا ما سمعوه عنهم، حتى أن الكسائي - زعيم المدرسة الكوفية - أنفق كل ما لديهم من حبر في

([47]) المدارس النحوية ص 214

[48] المرج السابق ص 223

([49]) معاني القرآن – ج(1)- ص266-269

([50]) المدارس النحوية - ص 215

تدوين ما سمعه من العرب، تبعه في ذلك تلميذه الفراء كما ورد سابقاً، فقد كانت المدرسة الكوفية تعتمد السماع كحجة رئيسة في وضع ضوابطها وقواعدها لعلم النحو .

والملاحظ أن الكسائي وتلميذه الفراء قد توسعا في الرواية عن الأعراب المتحضرين الذين سمعا عنهم ، وإن كنا نلاحظ أنه إنما كانا يتبعان فصحاءهم ، ممن سميناهم في غير هذا الموضع أمثال أبو ثروان وأبو الجراح(51) كما ذكر الفراء في كتابه (معاني القرآن) بعد رحلته الواسعة في الجزيرة فيقول :"وسمعت العرب تقول" أو يقول : "أنشدني بعض بني أسد أو بني كلاب أو بعض ربيعة أو بعض بني عامر ....." فنجده وأستاذه الكسائي قد أكثر من الرواية عن المفضل الضبي والكسائي فكان له الحظ الأوفر في الأشعار التي استشهد بها في كتابه "معاني القرآن الكريم" وقلما يذكر اسم الشاعر الجاهلي أو الإسلامي الذي ينشدُ من شعره اكتفاء بأن ذلك كان معروفاً متداولاً بين علماء اللغة والنحو في عصره ، وكثيراً ما يتوارد مع سيبويه فيما ينشدُ من أشعار مما يدل على أنه كان يضع كتاب سيبويه نصب عينيه وبصره(52).

الملاحظ بعد هذا التفصيل لموضوع السماع بين المدرستين البصرية والكوفية وقد اختصرت الدراسة في تناول نموذجين من علماء كل مدرسة على سبيل المثال ونلاحظ المقارنات أدناه :

1/ تناولت الدراسة أشهر علماء المدرستين عمدوا لجعل السماع مصدر تشريع لقواعدهم وضوابطهم وهم "الخليل بن احمد" وتلميذه "سيبويه " من المدرسة البصرية ، و"الكسائي" و "الفراء" من المدرسة الكوفية كنماذج لبسط السماع والاحتجاج به ومصدر من مصادر الاحتجاج وتقعيد القواعد .

2/ المدرسة البصرية لها السبق في الاحتجاج بالسماع كمصدر رئيسي انتهجت من المصادر المهمة للتشريع وتقعيد القواعد النحوية .

3/ سلكت المدرسة الكوفية نفس مسلك المدرسة البصرية لكنها لها رأيها في السماع باعتماد العرب الخُلّص وسكان المدن .

4/ تعتمد المدرسة البصرية في سماعها على العرب الخُلّص فقط وسكان البوادي الذين لم يختلطوا بالحضر والمدن ولا يعتمدون حديث وأقوال سكان المدن.

5/ تعتمد المدرسة الكوفية في سماعها على العرب وسكان المدن الذين اختلط لسانهم بالأعاجم ، كأعراب الحطمة وغيرهم .

الخاتمة: الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين سيدنا محمد ﷺ .

تعدُّ المصادر الرئيسة التي اعتمدها علماء النحو ومؤسسو علم النحو والتي تتمثل في القرآن الكريم والقياس والسماع بمختلف مدارسه هي الوسيلة لتقعيد القواعد النحوية، والتي يحتج بها هؤلاء العلماء في مسائلهم

([51]) المدارس النحوية ص 214

([52]) معاني القرآن الكريم – الكسائي – ص 34،ص67- ص91

النحوية، والسماع أصل من هذه المصادر، فهذه الدراسة تناولت موضوع السماع عند أول المدارس النحوية "البصرية والكوفية" والتي تناولت أشهر علمائهما كنماذج مبسطة للوقوف ومعرفة ما بذله هؤلاء العلماء من جهد كبير في سعيهم بحثاً عن صحة اللغة وقواعدها، ولتحقيق ذلك قاموا برحلات لبوادي العرب في شبه الجزيرة العربية لمشافهة العرب والسماع منهم ما يفيد وضع قواعدهم وتدوين ذلك ، وقد توصلت الدراسة إلي نتائج وتوصيات :

النتائج :

- إن علماء المدرسة البصرية لا يعتمدون سماع أهل المدن لاختلاطهم بالأعاجم وظهور المدنية على لسانهم .
- كان علماء المدرسة الكوفية يحتجون بسماع أهل وسكان البوادي والمدن اختلافاً مع المدرسة البصرية .
- للخليل بن احمد الفراهيدي القدْح المعلّى في إرساء قواعد السماع ووضع قوانين وقواعد النحو من مشافهة البدو الخُلّص الذين لم تفسد سلائقهم ولا ألسنتهم ، فيعدُّ هو صاحب فكرة السماع ، كما له دور في نشر السماع كمصدر من مصادر تقعيد القواعد وذلك لما قام به من جهد ورحيله للبوادي .

التوصيات :

- نسبة لبعد الشُقة بيننا وبين السابقين من العلماء والفقهاء نوصي بالاهتمام بعلم النحو كعلم ترتكز عليه علوم اللغة العربية الأخرى .
- تدريب الأساتذة بالمراحل التعليمية المختلفة لتجويد مادتهم اللغة العربية تدريباً جيداً حتى يستفيد طلابهم من هذا العلم .
- تعليم الناشئة بالمراحل المدرسية الأولى كيفية النطق السليم والرسم الصحيح للكلمات العربية و ضبطها، استناداً على القواعد النحوية وذلك حتى لا يكثر اللحن والوقوع في الخطأ سيما عند تلاوة الذكر الحكيم .

المصادرو المراجع:

1/ القرآن الكريم

2/ ابو البركات – عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري – نزهة الألباء – مكتبة الزرقاء عمان الأردن – 1405هـ 1985م – ط3

3/ أبو البركات – كمال الدين الأنباري – الإنصاف في مسائل الخلاف – المكتبة العصرية بيروت لبنان – 1424هـ 2003م – ط2.

4/ ابو القاسم الزجاجي – عبد الرحمن بن اسحق الزجاجي – مجالس العلماء – مكتبة الخانجي القاهرة مصر – 1428هـ 2008م – ط1

5/ ابو محمد عبد الله بن سعد – مرآة الجدنان وعبرة اليقظان – دائرة المعارف النظامية دلهي الهند – 1338هـ 1918م – ط1

6/ الجمحي – ابو عبد الله محمد بن سلمان الجمحي – طبقات فحول الشعراء – دار المدني جدة السعودية – 1422هـ 2001م – ط1

7/ ابن جني – ابو الفتح عثمان بن جني – الخصائص – عالة الكتب بيروت لبنان – 1427هـ 2006م – ط2

8/ السيرافي – الحسن بن عبد الله المزربان السيرافي أبو سعيد – شرح كتاب سيبويه – دار الفكر بيروت لبنان – 1429هـ 2008م – ط 3

9/ العسقلاني – احمد بن علي بن حجر العسقلاني – تهذيب التهذيب – دار المعارف النظامية دلهي الهند – 1338هـ 1918م – ط3

10/ القفطي – الوزير جمال الدين بن الحسن القفطي – أنباه الرواة – دار الفكر العربي القاهرة مصر – 1406هـ 1986م – ط4

11/ الحموي – شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي – معجم الأدباء – دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان – 1414هـ 1993م – ط3

12/ شوقي ضيف – المدارس النحوية – دار المعارف القاهرة مصر – 13378هـ 1968م – ط3

13/ السيوطي – عبد الرحمن بن ابي بكر جلال الدين عبد الرحمن السيوطي – الاقتراح – دار الفكر بيروت لبنان – 1425هـ 2004م – ط4

14/ السيوطي – عبد الرحمن بن ابي بكر جلال الدين عبد الرحمن السيوطي – همع الهوامع – مؤسسة الرسالة بيروت لبنان – 1413هـ 1992م – ط4

15/ الكسائي – علي بن حمزة الكسائي – معاني القرآن – دار قباء بيروت لبنان – 1419هـ 1998م – ط3

16/ الزبيدي – محمد ب الحسن بن عبد الله ب مزحج الزبيدي – طبقات النحويين واللغويين – دار المعارف القاهرة مصر – 1426هـ 2005م – ط4